جامعة تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار السنة الجامعة : 2024 – 2025

المستوى : ماستر1 السداسي : الثاني التخصص: الآثار الإسلامية

عنوان المقياس: العمارة في المغرب الإسلامي

أستاذ المادة : أ.د بلحاج معروف

Email:archeomarouf@gmail.com

عنوان الدرس مساجد خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة

مساجد خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة

المسجد الجامع بالقيروان

بعد عشرين سن من تشييد عقبة بن نافع المسجد هدمه حسان بن ثابت (693-697هـ/780-783) ولم يلبث أن ضاق المسجد بالمصلين فلجأ بشر بن صفوان إلى توسيعه سنة 105هـ/724م، فبنى في صحنه ماجلا يعرف بالماجل القديم بالقرب من الأروقة، كما بنى المئذنة، ويحدثنا البكري عن أن يزيد بن حاتم لما ولي إفريقية سنة 155هـ/ 773م هدم المسجد كله حاشا المحراب وبناه من جديد، ويرى أحمد فكؤي في ذلك مبالغة، ويشير إلى أن ما يقصده البكري هو بيت الصلاة.

كما يشير البكري على إلى قيام زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بهدم المسجد وبنائه من جديد سنة 221هـ/836م، لكن أحمد فكري يرى أن المسجد احتفظ ببعض أجزائه التي تعود إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك.

لما ولى إبراهيم بن الغلب زاد في بلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بباب البهو في آخر البلاطة الوسطى المستعرضة وكان ذاك سنة 261هـ/875م.

قد يكون الزيريون أضافوا إلى مجنبات الصحن واجهاتها، فبالمجنبات الغربية عمود يحمل نقوشا تعود إلى تلك الفترة، والنص المسجل عليها "ما أمر بعمله خلف الله بن غازي أشيري في شهر رمضان من عام 402هـ/1012م.

وفي المسجد بعض النقائش الأخرى تدلنا على أن المعز بن باديس أمر بعمل المقصورة البديعة الصنع الملاصقة للمحراب، وكان ذلك سنة 141هـ/ 1049م، ويرجع إلى المنتصف القرن الخامس الهجر عمل سقف المسجد الخشبي وأبواب بيت الصلاة.

وللحفصيين أثر في هذا الجامع ويدل على ذلك نقيشتان توجدان في مدخلي بيت الصلاة وجاء نصهما كالآتي: "أمر ببناء هذا الباب الخليفة أبو حفص سنة ثلاث وتسعين وستمائة"، ومنذ هذا التاريخ احتفظ المسد بعمارته على الرغم من بعض التحسين الذي طرأ عليه في القرن 11هـ/17م، وأدخلت على رواق محرابه زخارف جديدة في القرن 13هـ/19م، كما وضع لهذا الرواق سنة 1244هـ/ 1828م باب خشبي.

جاء تصميم الجامع مستطيل الشكل يمتد نحو العمق، ويبلغ عرضه 77م، وعمقه 126م، ويتكون من صحن ذي تصميم مستطيل الشكل بعرض 56م وعمق 67م، وتحيط به مجنبات طول عرضها 6.25م، وتتشكل كل مجنبة من رواقين، وتختلف المؤخرة عن المجنبتين وهي تتكون من غرف ومنافع أخرى، وأما بيت الصلاة فعرضه 77م، وعمقه 37.70م، وينقسم إلى 17 بلاطة أعرضها البلاطة الوسطى، ولا يحتل المحراب موقعا في وسط الجدار القبلي بل يحيد عنه بمقدار 2.50م.

لبيت الصلاة بابان متقابلان أحدهما في الجدار الغربي والآخر في الجدار الشرقي ينفتحان في البائكة الثانية، وللمسجد خمسة أبواب أخرى ينفذ من ثلاثة منها نحو المجنبة الغربية، ومن الآخرين نحو المجنبة الشرقية.

تقوم المئذنة في منتصف الجاد الشمالي، ولكنها لا تقع في محور الجامع بالضبط، وهي ذلت قاعدة مربعة طول ضلعها 10.50م.

يضم جامع القيروان عنصرا معماريا مميزا في الفن الإسلامي، وهو القبة، وتعد قبة أمام المحراب التي اقامها زيادة الله أقدم قبة في الجامع، وقد خصها المعماري الأغلبي بعناية كبيرة مثل المحراب فأبدع في بنائها وقام بتوسيع روا القبلة من أجلها حتى تكون قاعدتها مربعة وزاد في ارتفاعه حتى ينسجم ارتفاع القبة مع العمدة التي تساندها.

وللجامع خمس قباب أخرى، تقوم إحداها عند نهاية البلاطة الوسطى مما يلي الصحن، وهي المسماة بقبة البهو، وتتوج قبتان مدخلي بيت الصلاة في الشرق والغرب، وقبة رابعة تعلو مدخلا يؤدي إلى المجنبة الغربية، والقبة الأخيرة تتوج المئذنة.

تتشكل قبة أمام المحراب من ثلاثة أجزاء أساسية:

في السفل قاعدة مربعة، وفي الأعلى الغطاء أو الطاقية نصف كروية ويربط بينهما منطقة انتقال، تقوم القاعدة على أربعة عقود وتزدان كل الفراغات التي تتركها هذه العقود فيما بينها بحنيات.

أما الطاقية النصف كرزية فهي مقسمة إلى 24 ضلعا رأسيا تتفرع من القبة ووضعت الطاقية على أسطوانة دائرية فتحت فيها ثمانية شبابيك وبين كل منها زوج من فتحات تشبه

النوافذ وترتفع عقود النوافذ ال24 على 24 عمودا صغيرا. وللانتقال من المربع إلى المثمن استعملت الحنايا الركنية التي شكلتها عقود نصف دائرية.

تملأ الفراغات التي تركتها العقود والضلوع والأعمدة قواقع ومقرنصات ودوائر وشبابيك وأخاديد.

وأما قبة البهو فقد اعيد بناؤها وأدخل عليها تعديلات ممل غير من شكلها القديم، وأغلب الظن أنها كانت تتألف من نفس عناصر قبة أمام المحراب، وعلى الرغم من التعديلات، فإن القبة ما زالت تحتفظ في قاعدتها على العناصر القديمة الشبيهة بقبة أمام المحراب.

ترتفع المئذنة ككتلة متماسكة متحدة الأجزاء تتناسق نسبها تناسقا يشعر بالعظمة، لقد شيدت قاعدتها بأحجار منحوتة كبيرة حتى مستوى 3.50م، ثم تعلوها أيضا حجارة منحوتة حتى نهاية الطابق الأول، ويبلغ سمك جدرانها عند الأساسات 3.50م.

للمئذنة سلم يعلوه قبو نصف برميلي، وتؤمن الإضاءة الداخلية ثلاث فتحات معقودة بعقد حدوي تطل على الصحن، وينفذ الضوء إلى داخلها أيضا عن طريق خمس فتحات أخرى؛ ثلاثة في الواجهة الشمالية، واثنتان في الواجهة الغربية، وجاءت هذه الفتحات على شكل مزاغل.

تبدو جدران المئذنة مائلة نحو الداخل، لكنه ميلانا خفيفا، فسمك جدرانها عند نهاية الطابق الأول تنقص بنحو نصف متر.

يتكون هيكل المئذنة من برج طول ضلعه 10.50م، وارتفاعه 19م، ويليه برج أصغر حجما يصل ارتفاعه إلى 5م، ثم يأتي بعده برج أصغر حجما من الثاني يصل علوه إلى 7.50م، وتنتهي المئذنة بقبيبة ذات أخاديد ومن المرجح أنها تعود إلى عهد الحفصيين باعتبار أنّها تشبه قبتا باب لالة ريحانة وباب السلطان من الناحية الفنية، ويعتقد جورج مارسيه أنّها تعود إلى القرن السابع الهجري بينما يرى أحمد فكري أنّها من أصل لمئذنة أي أنّها تعود إلى عهد هشام بن عبد الملك.

المحراب كله وما يليه مبني بالرخام الأبيض منقوض عليه كتابة، ويكتنفه عمودان رخاميان في غاية الحسن والإبداع.

أقيمت تجويفة المحراب في عهد زيادة الله سنة 221هـ حسب ما ذكره البكري، ولكن الفقيه التونسي المعروف بالدباغ يشير إلى أنّ المحراب أقامه إبراهيم بن أحمد بعد ذلك بعشرين سنة، ويحف المحراب عمودان أحمران لكل منهما تاج وهما متطابقان في شكلهما وحجمهما، ويلتصق بتجويفة المحراب لوحات من الرخام ينفذ الضوء من تخاريمه، وقد كسيت حنية المحراب بالخشب ذي الزخارف النباتية الملونة، وأضف إلى ذلك نلك البلاطات الخزفية التي تحلي إطار المحراب، وتحمل كل واحدة منها موضوعا زخرفيا يختلف عن الأخرى، وتعد من أقدم البلاطات الخزفية في العمائر الإسلامية.

شيدت العقود من الحجارة وهي على نوعين؛ العقد الحدوي الذي استعمل بكثرة في بيت الصلاة، والعقد الحدوي المدبب الذي استخدم في البلاطة الوسطى المستعرضة، والعقود الحاملة لقبة أمام المحراب، كما استخدم في البوائك المطلة على الصحن.

ارتكزت العقود في بيت الصلاة على أعمدة رخامية أو غرانيتية يتراوح ارتفاعها ما بين 3.55م و4.86م، وأكثرها ارتفاعا تلك التي تحمل قبة أمام المحراب، وتعلو هذه الأعمدة تيجان كورنثية ثم تليها وسائد مربعة.

جاء السقف من النوع المستوي أو المسطح، وهو مصنوع من الخشب، وتقوم بحمله عقود وأعمدة، ولكن لم يبق من أصله القديم سوى أجزاء قليلة تحمل زخارف نباتية وهندسية وكتابية ملونة.

تعد المقصورة والمنبر من أقدم العناصر المصنوعة من الخشب في الجامع، ولا سيما المنبر الذي يعد أقدم نموذج في العمارة المسجدية ويعود إلى عهد أحمد بن إبراهيم الأغلبي وهو مصنوع من خشب الساج المحلى بحشوات تحمل موضوعات مشكلة من زخارف نباتية وهندسية.

جامع قرطبة

يقع الجامع فوق هضبة صخرية توجد في جنوب قرطبة على مقربة من القنطرة القديمة المقامة على نهر الوادي الكبير، وتحيط به الدروب الضيقة من جهاته الثلاثة، ويعد هذا الجامع من أروع ما أنتجه المعماري المسلم في المغرب الإسلامي.

الجامع قبل عبد الرحمن بن معاوية: عندما فتح المسلون قرطبة اختاروا موضع الكنيسة الكبيرة المعروفة بسان فيسنت San Vicent التي كانت من القرب من السور الجنوبي من الداخل لإقامة جامعهم، فشاطروا نصارى المدينة في الكنيسة، كان المسجد في بدايته بسيطا، زمع مرور الأيام أصبح يضيق بالمصلين فأضافوا إليه أجزاء جديدة، وصار السقف يقل تدريجيا لارتفاع مستوى الأرضيات كلما اتجهوا شمالا، وظل الأمر كذلك حتى قدوم عبد الرحمن بن معاوية.

<u>الجامع في عهد عبد الرحمن بن معاوية:</u> لم يستطع في بداية عهده سنة 138هـ من تأسيس الجامع، لكن في سنة 168هـ/ 757م شرع في هدم الكنيسة والمسجد القديم كليهما، وبنا الجامع، كان الجامع مستطيل الشكل طوله 73.50م وعرضه 62.60م، وينقسم إلى قسمين بيت الصلاة والصحن.

كان بيت الصلاة مستطيل الشكل (73.50×36.80م)، وكان يتألف من 11 بلاطة، الوسطى أكثر اتساعا وارتفاعا ، وقد أثار عدد البلاطات جدلا بين مؤرخي الفن، فالفريق الأول يرى اعتمادا على البقايا الأثرية أن عددها كان 11 بلاطة، بينما يرى الفريق الثاني الذي اعتمد على النصوص التاريخية وعلى رأسهم ليفي بروفانسال أن عددها كان 9 بلاطات.، وكل بائكة كانت تضم 12 عقدا مركبا، السفلى منها على شكل جدوة الفرس والعليا على شكل نصف دائري، وفي هذه العقود يتناوب الجر الأصفر مع الآجر الأحمر، مما يعطي للجامع منظرا زخرفيا رائعا، وكان السقف يتألف من لوحات خشبية مسطحة مصفوفة عرضيا، ومثبتة في عوارض طولية وعرضية، وتكسو هذه اللوحات زخارف هندسية ملونة، ويغطي هذا السقف سقف جمالوني يمتد بامتداد البلاطات.

كان الصحن في عهد عبد الرحمن بن معاوية مزروعا بأنواع الأشجار، وكلف عبد الله بن صعصعة (ت 192هـ) بعملية الغرس.

لم يبق من سور الجامع في هذه المرحلة سوى الجدار الغربي ببابه المسمى حاليا (سان استيبان)، وقد جدد حسب الكتابة في عهد عبد الرحمن الثاني سنة 241هـ/855م.

الجامع في عهد هشام بن عبد الرحمن(172-180هـ/788-796م): أتم هشام بناء الجامع، وذلك ببناء المئذنة التي لم تعمر طويلا فأعاد بناءها عبد الرحمن الناصر.

الجامع في عبد الرحمن الثاني بن الحكم (208-238هـ/822-852م): ضاق الجامع بالمصلين فأمر عبد الرحمن الثاني بالزيادة في مرحلتين:

الأولى سنة 218هـ/833م: أضيف إلى بيت الصلاة بلاطتين واحجة في الشرق والأخرى في الغرب، كما بني في الصحن مجنبتين من رواق واحد تشكلان امتدادا للبلاطتين المتطرفين في بيت الصلاة.

الزيادة الثانية 234هـ/848م: أمر عبد الرحمن الثاني بهدم جدار القبلة القديم وتم إضافة ثمانية أعمدة في كل بائكة، وبني محراب جديد، ولكن بالمحافظة على نفس النظام والأسلوب المعماري القديم، فأصبح بيت الصلاة بعمق 70م، ويضم 11 بلاطة، وكل بائكة تضم 20 عمودا. وكان بالجامع ثلاثة أبواب في الجهة الغربية، اثنان ينفذان إلى بيت الصلاة وتقابلها ثلاثة أبواب في الجهة الشرقية، وباب آخر في الجهة الشمالية.

الجامع في عهد عبد الرحمن الناصر(300-350هـ/912-961م: قام بهدم الجدار الشمالي، وأنشأ جدارا جديدا ومئذنة سنة 340هـ/951م، كانت المئذنة من الطراز المغربي طول كل ضلع منها 8.50م، جدرانها مكسوة بالحجر الجيري، وتحتوي على سلمين بداخلها مفصولين عن بعضهما ويدوران في اتجاه متعاكس، وهذا التصميم فريد في العالم الإسلامي، وما زالت لمئذنة إلى اليوم تحتفظ بجزء كبيرمنها إلى ارتفاع 22م، بعد تهدم الجزء العلوي إثر زلزال 1589م، فكساها المهندس الإسباني أرنان رويث برداء جيري وملأ الفراغ الداخلي بين أدراج المئذنة بالبناء حتى تتحمل المئذنة ثل الجزء العلوي الذي أعيد بناؤه وخصص لوضع الأجراس.

الجامع في عهد الحكم المستنصر 350-355هـ/961-966م: كانت من أهم الزيادات وتمت في سنة 354هـ/965م، وهناك نصوص تذكارية تؤرخ البناء وتذكر أسماء المهندسين والمشرفين على الأعمال، من أهمها النص المنقوش في أسفل حنية المحراب من الجانبين.

تم تمديد بيت الصلاة نحو القبلة بإضافة 12 عمودا، واقتضى ذلك إعادة بناء جدار القبلة، ونقلت أعمدة المحراب القديم الثمينة إلى المحراب الجديد وتشير إلى ذلك الكاتابة.

الشيء المهم في هذه التوسعة القباب الثلاثة المتجاورة التي أقيمت في رواق القبلة، وتتقدمها قبة أخرى في نهاية البلاطة الوسطى للتوسعة الجديدة، لا شك أن دور هذه القباب كان إضاءة بيت الصلاة لا سيما في قسمها الأمامي الذي ابتعد كثيرا عن الصحن المصدر الأساسي للضوء في الجامع، وكان أيضا إبداعا فنيا، والقاب الأربعة لا تتشابه في تصميمها، فالعقود تختلف في أو ضاعها وفي أشكالها وفي طريقة تشابكها.

جاء جدار القبلة في توسعة الحكم بطريقة مبتكرة، حيث جعل في سورين بينهما فراغ يقدر بـ 4م، ويمثل المحراب منتصفه، وقد جعل ذلك الفراغ ممرا مغطى بطابقين من الأقبية على شكل الساباط، وجعل له بابان يؤديان إلى بيت الصلاة على يمين ويسار المحراب، وبابان يؤديان إلى خارج الجامع في نهايته الشرقية والغربية، وهذه أيضا خاصية ينفرد بها جامع قرطبة.

الجامع في عهد المنصور محمد بن عامر: شرع المنصور محمد بن عامر حاجب الخليفة هشام بن عبد الملك سنة 377هـ/987م في توسيع الجامع، ولو يكن لديه مجال سوى من الناحية الشرقية، فأضاف ثماني بلاطات جديدة إلى بيت الصلاة واقتضت التوسعة إجراء تعديل في الجدار الشرقي بدلا من إزالته كليا، صار بيت الصلاة يشمل على 19 بلاطة، وفتحت في الجدار القديم أبوابا تماثل أبواب الجدار الغربي وتشبهها، وعددها سبعة أبواب، ولم يقم بتمديد الساباط..

الجامع بعد استيلاء القشتاليين على قرطبة: ظل الجامع محتفظا على تصميمه طيلة الحكم المرابطي والموحدي باستثناء بعض الترميمات والتعديلات الطفيفة، وعندما سقطت المدينة في أيدي القشتاليين سنة 635هـ/1236م تحول الجامع إلى كنيسة "سانتا ماريا"، ومصلى "سان فرناندو" بجوار القبة التي تعلو مدخل البلاطة الوسطى في زيادة الحكم المستنصر، وبدأ الإسبان في إدخال تغييرات منذ سنة 1523م، إذ شرع الأسقف ألونسو مانريكي في هدم جزء كبير من زيادة عبد الرحمن الثاني والمنصور لإقامة كتدرالية، وأشرف على الأشغال المهندس أرنان رويث إلى أن توفى سنة 1547م، فخلفه ابنه حتى توفى سنة

1583، واكتمل البنا في عهد حفيده سنة 1599م، ثم أقيمت على جدران الجامع مصليات عيدة على طراز عصر النهضة.

جامع القرويين:

كان الجامع في بدايته مسجدا صغيرا يطلق عليه اسم جامع الشؤفاء من بناء إدريس الثاني في عدوة القرويين بفاس، ويرجح أنّه بني في نفس تاريخ بناء جامع الأشياع بعدة الأندلسيين في سنة 192هـ/808م.

وقد ظل الجامعان على حالهما حتّى سنة 245هـ/859م، عندما اتّسعت عمارة مدينة فاس في العدوتين نتيجة الرخاء الذي عم في بلاد المغرب الأقصى حين كانت الدولة الإدريسية في أوج ازدهارها الحضاري على الرغم من المتاعب السياسية، في هذه الفترة توفى في فاس رجل ثري من عرب القيروان يدعى محمد بن عبد الله الفهري، وورثت ثروته ابنتاه فاطمة ومريم اللتان أرادتا انفاق جزء كبير منها في توسيع الجامعين، واهتمت فاطمة بجامع القرويين، ولكن يبدو حسب النقيشة أن أشغال البناء انطلقت سنة 146هـ/857م، مما يدل أن فكرة توسعة الجامع بدأت في عهد والديهما.

اتسع الجامع سواء في بيت الصلاة حيث صار أكبر عمقا، وذلك بإضافة أساكيب جديدة، فأصبح عرضه 37م وعمقه 32م، وكان يتألف من أربعة أساكيب و12 بلاطة، كما اتسع الصحن، فأعيد بناء مجنباته، وأنشئ للجامع محراب ومنبر جديدان، كما شيدت المئذنة.

بعد نحو قرن من الزمن سنة 345هـ/ 957م صار الجامع ضيقا على المصلين الوافدين إليه، فتكفل الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي بتوسيعه، وتم ذلك نحو الجهات الشرقية والغربية والشمالية، وأصبح بيت الصلاة يضم 21 بلاطة وسبعة أساكيب.

أعيد بناء المئذنة عندما تم توسيع الجامع للمرة الثانية من قبل أحمد بن أبي بكر الزناتي في شهر ربيع الأول من سنة 345هـ، وذلك حسب النقيشة التي تحملها المئذنة في واجهتها من ناحية الصحن، وصارت المئذنة ذات قاعدة مربعة طول ضلعها 5م وارتفاعها 20م، وكسيت بالزليج فيما بعد، وتوجت قمتها بتفافيح صغيرة موشاة بالذهب.

على الرغم من أنّ المئذنة يضيق اتساعها بعد الشرفة، فإنّ السلم يصل إلى مقربة من قمتها.

تم توسيع الجامع مرة أخرى في عهد علي بن يوسف بت تاشفين المرابطي في سنة 531هـ/1137م، وعهد الإشراف على الأعمال إلى القاضي عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الكتاني، كما تشير إلى ذلك النقش الذي يحمله إفريز القبة، فتم التوسع نحو الجهة الجنوبية الشرقية (القبلة)، فصار بيت الصلاة يضم 21 بلاطة، و10 أساكيب، وأعيد بناء المحراب والمنبر من جديد، وهما في غاية الإبداع والجمال، كما أعيد بناء الأبواب ولا سيما باب الفخارين الذي يطلق عليه اليوم اسم باب الشماعين، وقد كسيت الأبواب بالنحاس، وأقيم في كل مدخل قبة صغيرة، كما غطيت منطقة قبة أمام المحراب بقبة جصية ذات مقرنصات تحمل نقوشا ملونة باللون الذهبي إلى جانب الألوان الأخرى، ويعلو المحراب شمسيات ذات زخارف متنوعة صنعت بدقة وانسجام كبيرين.

كان منبر الجامع مصنوعا من خشب الأبنوس والصندل، ويحمل زخارف مطعمة بالعاج، وقد زينت حشواته بزخارف نباتية وهندسية رائعة.

خلال الفترة الموحدية القرن 6-7هـ شهد الجامع إضافة عناصر تزينية جديدة وعناصر نفعية كمجموعة المراحيض في شمال المبنى ومخزن تحت الأرض في الجانب الشمالي الشرقي استعمل لتخزين الزيت والحصائر والمواد الأخرى الخاصة بالجامع، كما تم بناء حوض مائي، وجهز الجامع بثريا كبيرة في القبة عند المجاز القاطع، هذا بالإضافة إلى المجاز الأجراس المستوردة من الأندلس، وتم تحيلها إلى ثريات موزعة على طول البلاطة لوسطى المستعرضة.

بلغ الجامع ذروته في الزخرفة في العهد المريني (ق 7-8هـ) وأصبح الجامع يضم 270 عمودا يشكل 16 بلاطة، وكل واحدة تضم بائكة متكونة من 21 عقدا حدويا، كما صار للجامع في هذه الفترة 15 بابا مخصصا للرجال وبابين صغيرين خاص للنساء.

تم إصلاح المئذنة سنة 688هـ/1289م أيام حكم السلطان المريني أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق، فأتقنت كسوتها بالزليج وزينت شرفاتها بشرّافات مسننة، وتوجت المئذنة بقبيبة.

يعود الفضل إلى السعديين (ق 10-13هـ) في بناء مجنبات الصحن الحالية التي استعملت هندستها من قصر الحمراء بغرناطة من حيث التنظيم والزخرفة والعناصر المعمارية.

أصبح جامع القرويين بعد توسعة فاطمة بنت محمد الفهري جامعة تضاهي جامع الأزهر وجامع الزيتونة، وجامع القيروان وجامع قرطبة وجامع الأموي بدمشق، وكل هذه الجوامع كانت مراكز علمية تستقطب العلماء من كل أرجاء العالم الإسلامي.